الفصل الخامس
الرحمة جزاء وابتلاء

المبحث الأول ـ الرحمة جزاء

والرحمة جزاء وثواب لمن يستحقها، قال الجرجاني[1]: والثواب ما يستحق به الرحمة والمغفرة من الله تعالى والشفاعة من الرسول ﷺ ، وقيل الثواب هو إعطاء ما يلائم الطبع[2].

ومن رحمة الله تعالى النبوة، فالنبوة رحمة فهي جزاء ومنحة وفضل ومنّة من الله عز وجل، يختص بها من شاء من عباده، وكذلك الصلاة والرحمة من الله جزاء للمسترجعين، الذين نزل بهم بلاء أو مصيبة، وكذلك الرحمة والمغفرة جزاء للمهاجرين وللمجاهدين في سبيل الله، وقد فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين غير أهل الأعذار في الجزاء بالمغفرة والرحمة، وإنه وإن كان المجاهدون قد نالوا هذا الجزاء بفضل تميزهم على القاعدين، بمباشرتهم الحركة والمشي، زيادة على النيّة، فهي جزاء كذلك للمحسنين لأصحاب الأعذار من الشيوخ والنساء والمسنين والمرضى، والفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد.

والرحمة جزاء لمن دخل الإسلام وأطاع الله وأناب، وهي جزاء لمن يتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، ولمن يلتمس مرضاته كما في الحديث: عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ ولا يَزَالُ بِذَلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي أَلا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فلانٍ وَيَقُولُهَا

---

1 ـ **الجرجاني:** علي بن محمد بن علي الجرجاني الإسترابادي، أبو الحسن السيد الشريف، عالم تحرير قد جاوز قصب السبق في التحرير، ومصنفاته كثيرة منها حاشية على أول تفسير الكشاف، وعليها حاشية العالم الفاضل علاء الدين علي الطوسي، وعليهما أيضا حاشية العالم الفاضل المولى حسن جلبي ابن محمد شاه الكاتب من أسامي الكتب، وله التفسير للقرآن العظيم، علقه على تعليقات المولى المحقق والمدقق سعد الدين التفتازاني، وردّ فيها عليه في أكثر المواضع، والحاشية على المطول وعلى شرح المطالع، والحاشية على شرح الشمسية، والحاشية على شرح مختصر ابن الحاجب، وشرح المواقف في الكلام، وآخر مصنفاته شرح مختصر السراجي في الفرائض، صنفها في بلدة سمرقند، وولد في بلدة جرجان سنة أربعين وسبعمائة هجرية، وتوفي ببلدة شيراز سنة عشر وثمانمائة هجرية، انظر(طبقات المفسرين الداودي، 310/1 ـ 311، رقم الترجمة: 393).

2 ـ التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، (740هـ ـ 816هـ)، تحقيق: ابراهيم الأبياري، 99/1، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط1، 1405هـ/1990م.

حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الأَرْضِ ([1])، وهي جزاء لأهل الرشاد، وعندما يوفق العبد للإيمان فتلك من أعظم الرحمة التي يمنّ الله بها على عباده، وغاية الرحمة مرضاته سبحانه ونيل الجنة، فالجنة جزاء لمن اعتصم به وتقرب إليه بالأعمال الصالحة، وهي جزاء لمن هداه للإسلام، ومات عليه، وهي في الأخير منحة يمنحها الله من شاء من عباده المؤمنين، الذين كانوا يرجون رحمته ويخافون عذابه.

1ـ النبوة جزاء وفضل وإحسان :

أ ـ النبوة جزاء من فضل الله العظيم: يخبر ـ سبحانه وتعالى ـ بأن اليهود والكافرين لا يحبون أن ينال أو يمس المؤمنون فضل أو خير من نبوة محمد ﷺ، فهذا النبي أحق بها، وكذلك ينال خيرها المؤمنون به، فالله يختص بالنبوة والوحي من شاء من عباده، والله أعلم من يستحقها، فذلك من أعظم ما يتفضل به على عباده، فلماذا هذا الحسد والبغض، الذي يكنه الكافرون..

قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾([2]).

يقول الإمام الفخر: واعلم أنه تعالى لما بيّن حال اليهود والكفار في العداوة والمعاندة، حذر المؤمنين منهم، فقال: (ما يود الذين كفروا)، فنفى عن قلوبهم الود والمحبة، لكل ما يظهر به فضل المؤمنين، و الخير هو الوحي، وكذلك الرحمة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ ([3])، والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحي إليهم، فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي، ثم بيّن سبحانه أن ذلك الحسد لا يؤثر في زوال ذلك([4]).

1 ـ مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني، اشراف: د/ سمير طه المجذوب، برقم: 21367 ـ باقي مسند الأنصار، المكتب الإسلامي، دمشق/ بيروت،ط1، 1413هـ/1993م.
2 ـ البقرة (105).
3 ـ الزخرف (32).
4 ـ التفسير الكبير، الرازي، 204/3.

والله يختص بالنبوة من يشاء، ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، والله ذو الفضل العظيم، إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم[1]، كقوله تعالى: ﴿إِلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾[2].

ويقول سيد قطب: فالله أعلم حيث يجعل رسالته؛ فإذا اختص بها محمدا ﷺ والمؤمنين به، فقد علم – سبحانه – أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص[3].

ب ـــ فالنبوة جزاء يختص بها من شاء من عباده، وفضله واسع عظيم لا يحد ولا يمنع، فرد الله على اليهود وأبطل ما زعموه بالحجة الباهرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[4].

قال البغوي: والله يختص برحمته ـــ بنبوته ـــ من يشاء، والله ذو الفضل العظيم والفضل ابتداء إحسان بلا علة[5].

وهذه الرحمة ممثلة في النبوة، التي خصّ بها محمد ﷺ، وبما عادت على المؤمنين بشرف الهداية، قال الطبري: وفي قوله: (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)، تعريض من الله تعالى بأهل الكتاب، أن الذي آتى نبيه محمد ﷺ والمؤمنين به من الهداية تفضلا منه، وأن نعمه لا تدرك بالأماني، ولكنها مواهب منه يختص بها من يشاء من خلقه[6].

وقال سيد قطب: ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم – ويعلم الجماعة المسلمة – حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمنّ على أمة برسالة وبرسول:

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[7]..

وقد شاءت إرادته أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب؛ بعد ما خاسوا بعهدهم مع الله؛ ونقضوا ذمّة أبيهم إبراهيم؛ وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل؛ وتخلوا عن الأمانة التي ناطها الله بهم؛ وتركوا أحكام كتابهم وشريعة دينهم؛ وكرهوا أن يتحاكموا

1 ـ الكشاف، الزمخشري، 201/1
2 ـ الإسراء (87).
3 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1 /101.
4 ـ آل عمران (83 ـ 74).
5 ـ معالم التنزيل، البغوي، 103/1.
6 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 475/1.
7 ـ آل عمران (83 ـ 74).

إلى كتاب الله بينهم، وخلت قيادة البشرية من منهج الله وكتابه ورجاله المؤمنين، عندئذ سلّم القيادة، وناط الأمانة بالأمة المسلمة، فضلا منه ومنّة، والله واسع عليم، يختص برحمته من يشاء، عن سعة في فضله وعلم بمواضع رحمته، والله ذو الفضل العظيم، وليس أعظم من فضله على أمة بالهدى ممثلا في كتاب، وبالخير ممثلا في رسالة، وبالرحمة ممثلة في رسول[1].

2 ـ الصلاة والرحمة من الله جزاء للمسترجعين بالنعم العاجلة والآجلة:

إن المؤمن إذا نزل به بلاء أو كرب أو مكروه استرجع وقال: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وأقرّ بأنه عبد لله يفعل به ما يشاء، قال الإمام الرازي: (ويدل على كونه راضيا بكل ما نزل به في الحال من أنواع البلاء)[2]، أولئك الموصوفون بما ذكر، الصابرون لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله، جزاء قولهم ذلك، وهم المهتدون إلى طريق السعادة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[3].

قال ابن القيم: (فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى، هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتمّ، كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، هي غير الرحمة العامة بالبَر والفاجر، وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة، والصلاة عليهم، فقال تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[4]، قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: (نعم العدلان ونعمت العلاوة، فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة)، والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة : الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة، من الألم والعذاب والذم واللعن، الذي هو ضد الصلاة، ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى، كان أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم رحمة)[5].

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 416/1 ـ 417.
2 ـ التفسير الكبير، الرازي، 140/1.
3 ـ البقرة (156 ـ 157).
4 ـ البقرة (157).
5 ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم، 172/2، 174.

قال ابن عباس: أخبر الله أن المؤمن إذا سلم لأمر الله تعالى، ورجع واسترجع عند مصيبته، كتب الله تعالى له ثلاث خصال: الصلاة من الله والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (لأن أخِرَّ من السماء، أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى ليته لم يكن).

وقال الرازي: أما قوله: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) فاعلم أن الصلاة من الله هي الثناء والمدح والتعظيم وأما رحمته فهي النعم التي أنزلها به عاجلا ثم آجلا، وأما قوله: (وأولئك هم المهتدون) ففيه وجوه أحدها أنهم المهتدون لهذه الطريقة الموصلة بصاحبها إلى كل خير، وثانيها المهتدون إلى الجنة، الفائزون بالثواب، وثالثها المهتدون لسائر ما لزمهم[1].

ويقول صاحب الظلال في ذلك: (صلوات من ربهم، يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه، الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه، وهو مقام كريم، ورحمة، وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون، وكل أمر من هذه هائل عظيم..

إن الله يضع هذا كله في كفة، ويضع في الكفة الأخرى أمرا واحدا، صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، إنه لا يعدهم هنا نصرا، ولا يعدهم هنا تمكينا، ولا يعدهم هنا مغانم، ولا يعدهم هنا شيئا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يُعِدُّ هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها، فكان من ثم يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية – حتى الرغبة في انتصار العقيدة – كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له، ولطاعته ولدعوته، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم، لايتطلعون إلى شيء إلا رضى الله، وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون، هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة، التي تهفو إليها قلوبهم وحدها، فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها..

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته **جزاء**، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، و**جزاء** على الخوف والجوع والشدة، و**جزاء** على القتل والشهادة، إن الكفة

1 ـ انظر التفسير الكبير، الرازي، 141/4.

ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر، وأرجح من التمكين، وأرجح من شفاء غيظ الصدور..

هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعدّه ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية، لمن يريد استخلاصهم لنفسه، ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين)[1].

3 ـ الرحمة جزاء للمهاجرين والمجاهدين في سبيل الله بعد الإيمان:

الإيمان بالله والهجرة والجهاد، تعتبر صفات تكشف عن طهارة النفس، بتطهيرها من الشرك، وهجرة الأوطان، وبذل النفس والمال في سبيل نصرة الإسلام، إن هذه الصفات عالية وعظيمة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾[2]، قال البيضاوي: (أعظم درجة) أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم[3]، كل ذلك يقابله جزاء من الله تعالى، هذا الجزاء يتمثل في الرحمة والرضوان والجنان.

قال السعدي: إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجرا، وأرفع ذكرا من سقاة الحاج، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون، وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم، قال السعدي: فلا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المرهوب إلا من اتصف بصفاتهم وتخلق بأخلاقهم، فيبشرهم ربهم ـ رحمة منه وكرما وبرا بهم واعتناء ومحبة لهم ـ برحمة منه، أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كل خير، ورضوان منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا، وجنات لهم فيها نعيم مقيم، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعدّ للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 146/1.
2 ـ التوبة (20 ـ 21).
3 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 136/3.

ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم، خالدين فيها أبدا، لا ينتقلون عنها ولا يبغون عنها حولا، إن الله عنده أجر عظيم، لا تستغرب كثرته على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون[1].

قال أبو حيان[2]: لما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث: الرحمة، الرضوان، الجنان، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثلث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان، وقال الألوسي: ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيم مقيم جاء في غاية اللطافة، لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب[3].

ـــ تفضيل المجاهدين على القاعدين في الجزاء بالمغفرة والرحمة:

وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين من غير أهل الأعذار في الجزاء بدرجة، وبمنازل بعضها فوق بعض، وبالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[4].

---

1 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلم المنان، السعدي، ص332.

2 - **أبو حيان:** هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي الأندلسي الجياني الأصل الغرناطي المولد والمنشا المصري الدار أبو حيان، أثير الدين، شيخ النحاة، العلم الفرد والبحر الذي لم يعرف الجزر بل المد، سيبويه الزمان، والمبرد إذا حمي الوطيس بتشاجر الأقران، مولده بمطخشارش وهي مدينة مسورة من أعمال غرناطة في آخر شوال سنة أربع وخمسين وستمائة هجرية، ونشأ بغرناطة وقرأ بها القراءات، وجال في بلاد المغرب ثم قدم مصر قبل سنة ثمانين وستمائة هجرية، سمع الكثير بغرناطة من الأستاذ أبي جعفر بن الزبير وأبي جعفر بن بشير وغيرهم، وكان إماما منتفعا به، اتفق أهل عصره على تقديمه وإمامته، وصنف التصانيف السائرة وله البحر المحيط في التفسير، وذكر في أسامي الكتب وهو كتاب عظيم القدر في أسفار عديدة، ثم اختصره تلميذه تاج الدين الشيخ أحمد بن عبد القادر الشهير بابن مكتوم، وسماه النهر من البحر، ثم اختصره تلميذه أيضا الفاضل محمد بن محمد الشهير بالأنصاري وسماه الدر اللقيط، رد فيه على العلامة الزمخشري، وابن عطية في مواضع عديدة، وصنف الإمام المذكور أبو حيان إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب، رتبه على حروف المعجم وهو مختصر لطيف كثير الفائدة، وله النكت الحسان، والنضار، ومنطق الخرس في لسان الفرس، وشرح التسهيل، والارتشاف، وتجريد أحكام سيبويه وغير ذلك، وقد كانت وفاته في شهر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة هجرية، بمنزله بظاهر القاهرة، ودفن بمقابر الصوفية، انظر(طبقات المفسرين - الداودي 1/ 278 - 280، ترجمة رقم: 344، وكشف الظنون لحجي خليفة، 1678/2و1864و1958و 1976).

3 - روح المعاني، الألوسي، 70/10.

4 - النساء (95 - 96).

أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض، قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يارسول: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ـــ وكان أعمى ـــ فأنزل الله (غير أولي الضرر)، فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية، كما قال ﷺ : إن بالمدينة أقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة يارسول الله؟ قال: نعم حبسهم العذر، قال البغوي: وقيل أراد بالقاعد ها هنا أولي الضرر فضل الله المجاهدين عليهم درجة لأن المجاهد باشر الجهاد مع النية وأولي الضرر كانت لهم نية ولكنهم لم يباشروا فنزلوا عنهم بدرجة وكلا ـــ وكلا من المجاهدين والقاعدين بسبب ضرر لحقهم ـــ وعد الله الحسنة، يعني الجنة بإيمانهم[1]، وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم، منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة، وفي الحديث: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض[2].

قال السمرقندي[3]: ومغفرة يعني مغفرة لذنوبهم، ورحمة يعني نعمة في الجنة، وكان الله غفورا لمن جاهد رحيما إذ سوى بين من له عذر بالفضل مع غيره[4].

ـــ فإن كان الله تعالى يجاز المجاهدين، فكذلك من رحمته أن يجازيّ المحسنين من أهل الأعذار، العاجزين عن الجهاد، قال الزمخشري: ولقد حصر الله المعذورين في التخلف، الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة، والذين عدموا آلة الخروج والذين سألوا المعونة فلم يجدوها[5]، ولأنهم نصحوا لله ورسوله بوصفهم محسنين، فجزاهم الله بأن رحمهم برفع

---

1 ـ معالم التنزيل، البغوي، 468/1.

2 ـ صحيح ابن حبان،291/4، باب فضل الجهاد، برقم:4521.

3 ـ **السمرقندي:** نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الليث السمرقندي، الحنفي الفها، إمام الهدى، وكان له تفسير القرآن المسمى بحر العلوم، وكتاب النوازل في الفقه، وخزانة الأكمل وتنبيه الغافلين وبستان العارفين، والمختلفات في فروع الحنفية، قال القاسم بن قطلوبغا تفقه أبو الليث على أبي جعفر الهندواني وله من المصنفات غير ما ذكر كتاب عيون المسائل وكتاب تأسيس النظائر والمقدمة، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، انظر(طبقات المفسرين ـ الداودي 91/1- 92، رقم الترجمة: 122، وانظر كشف الظنون، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي،(1017هـ ـ 1067هـ)، 1638/2، دار الكتب العلمية ـ بيروت، 1413هـ/1992م).

4 ـ تفسير بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، 356/1، تحقيق: محمود مطرجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

5 ـ الكشاف، للزمخشري، 286/2.

العقوبة عنهم واللوم، والعفو عنهم، ونيلهم ثواب القادرين الفاعلين: قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

فليس على الشيوخ المسنين، ولا على المرضى العاجزين، الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم، ولا الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد إثم في القعود، (إذا نصحوا لله ورسوله)، قال الإمام الرازي: ومعناه أنهم إذا أقاموا في البلد احترزوا عن إلقاء الأراجيف وعن إثارة الفتن وسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين الذين سافروا إما بأن يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم وإما بأن يسعوا في إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم، إن جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد[2]، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار، وقال البيضاوي: (وليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل)[3]، فما على المحسنين من طريق بالعقاب لأنه قد سد طريقه بإحسانه[4]، قال في التسهيل: وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم[5]،فالله غفور رحيم لمن كان على هذه الخصال[6]، ومن مغفرته ورحمته عفا عن العاجزين وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين[7]،مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة، وإن كان تخلفهم بعذر[8].

4 ـــ الرحمة جزاء لأهله الإسلام ولمن دخل فيه:

ـــ جعل الله سبحانه وتعالى الرحمة جزاء لمن آمن به وتاب من الشرك والكفر:

هؤلاء الأسرى من بدر ـــ وأي أسير وقع في أيدي المسلمين ـــ يأمر الله تعالى رسوله بأن يخبرهم بأن لهم الجزاء العظيم إن هم دخولوا الإسلام، ويعوضهم ما خسروه من قبل، في دفعهم الفدية، ويغفر لهم ما سلف منهم، ويرحمهم بالإسلام:

---

1 ـ التوبة (91).
2 ـ التفسير الكبير، الرازي، 127/16.
3 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 165/3.
4 ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن، علي بن أحمد الواحدي، 477/1، تحقيق/ صفوان عدنان داوودي، ط1، 1415هـ/ 1995م، دار القلم ـ دمشق.
5 ـ التسهيل لعلوم التنزيل، الكلبي، 83/2.
6 ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، 477/1.
7 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلم المنان، السعدي، 348/1.
8 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 92/4.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء، والمراد بهم أسرى بدر، إن يعلم الله في قلوبكم إيمانا وإخلاصا، وصدقا في دعوى الإيمان، يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء، ويمحو عنكم ما سلف من الذنوب، والله غفور رحيم أي واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب، قال البيضاوي: نزلت في العباس رضي الله عنه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه (عقيل) و(نوفل) فقال يامحمد: تركتني أتكفف قريشا ما بقيت، فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيالك! فقال العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد، ولقد دفعته إليها في سواد الليل! قال العباس: فأبدلني الله خيرا من ذلك، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي[2] ـــ يعني الموعود ـــ بقوله تعالى: (ويغفر لكم والله غفور رحيم)، وقال السمرقندي: ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور لما كان في الشرك رحيم به في الإسلام[3].

ـــ ومن الجزاء بالرحمة التوفيق للإيمان:

قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾[4].

أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان، وما جعلناك يامحمد حفيظا على أعمال الكفار كفيلا عنهم لتقسرهم على الإيمان إنما أرسلناك نذيرا فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار[5].

1 ـ الأنفال (70).
2 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 217/1.
3 ـ بحر العلوم، السمرقندي، 33/2.
4 ـ الإسراء (54).
5 ـ صفوة التفاسير 62/7.

ـــ والرحمة جزاء بتكفير السيئات ولمن عاد إلى الصراط المستقيم:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

أي وإن أراد الله إصابتك بضر فلا دافع لـــه إلا هو وحده، وإن أرد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع، يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد، (وهو الغفور) قال السعدي: الغفور لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد غفر الله ذنوبه، كبارها وصغارها، (الرحيم) الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع، أن الله هو المفرد بالنعم وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدا من الخلق ليس بيده من هذا شيء، إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل[2].

ويقول سيد قطب رحمه الله في قوله تعالى: (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) الذي يغفر ما مضى متى وقعت التوبة، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح، وعودتهم إلى الصراط المستقيم.

ـــ والرحمة جزاء لمن أطاع الله وأناب :

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

قال في الكشاف: إشارة إلى جعل الكعبة قياما للناس، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره، لتعلموا أن الله يعلم كل شيء، وهو عالم بما يصلحكم وما ينعشكم، مما أمركم به وكلفكم، شديد العقاب لمن انتهك محارمه، غفور رحيم لمن حافظ عليها[4].

---

1 - يونس (107).
2 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 375/1.
3 - المائدة (97 - 98).
4 - الكشاف، الزمخشري، 714/1 - 715.

وقال في التيسير: فمن عِلْمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية، اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم، أي ليكن هذان العِلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أن الله شديد العقاب ـــ العاجل والآجل ـــ على من عصاه، وأنه غفور رحيم، لمن تاب إليه وأطاعه، فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعلمون على ما يقتضيه الخوف والرجاء[1].

وعند النسفي: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) لمن استخفّ بالحرم والإحرام، (وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) لآثام من عظّم المشاعر العظام (رَحِيمٌ) بالجاني الملتجئ إلى البلد الحرام[2].

ـــ والرحمة جزاء لمن يشاء من عباده، بأن يهتدوا ويدخلوا في الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[3].

قوله تعالى: ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، قال الضحاك: أهل دين واحد أو أهل ضلالة أو أهل هدى، ولكن يدخل من يشاء في رحمته، قال أنس بن مالك في الإسلام[4]، وقال البيضاوي: بالهداية والحمل على الطاعة، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير، أي يدعهم بغير ولي ولا نصير في عذابه، ولعل تغيير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار[5].

ـــ والرحمة جزاء لمن يشاء من عباده، بأن يرزقهم الإيمان:

قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[6].

أي ليجزي الله الصادقين بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم[7]، قال الإمام الرازي: ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا

1 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلم المنان، السعدي، 245/1.
2 ـ مدار التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، 304/1.
3 ـ الشورى (8).
4 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 6/16.
5 ـ أنوار التنزيل، البيضاوي، 123/5.
6 ـ الأحزاب (24).
7 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلم المنان، السعدي، 662/1 .

إن شاء ذلك فيمنعهم من الإيمان، أو يتوب عليهم إن أراد وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبـــي ﷺ عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم، وقال في التيسير: (أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم)[1]، قال الـــرازي: (وكان الله غفورا) حيث ستر ذنوبهم، و (رحيما) حيث رحمهم ورزقهم الإيمان، فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول: ويعذب المنـــافقين مع أنه كان غفورا رحيما، لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم، ولو كان دون ذلك لغفر لهم[2].

ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: إن الله كان غفورا لذنوب المسرفين على أنفسهم ولو أكثروا من العصيان إذا أتوا بالمتاب، رحيما بهم حيث وفقهم التوبة ثم قبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه[3].

وقال ابن كثير: ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه [4] قال: (إن الله كان غفورا رحيما).

ـــ والله مبالغ في الرحمة لمن يشاء ممن آمن به وبرسوله:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[5]، قال في التيسير: أي هو تعالى المنفـــرد بملـــك الـــسماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حُكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: (يغفر لمن يشاء) وهو من قام بمـــا أمره الله به، (ويعذب من يشاء) ممن تهاون بأمر الله، (وكان الله غفـــورا رحيمـــا) أي وصفه اللازم، الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميـــع الأوقـــات يغفـــر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطّائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المـــدار آنـــاء الليـــل والنهار[6].

1 ـ هذا قول السعدي في تفسيره، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلم المنان، 662/1 .
2 ـ التفسير الكبير، الرازي، 176/25.
3 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلم المنان، السعدي، 662/1 .
4 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 477/3.
5 ـ الفتح (14).
6 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلم المنان، السعدي، 792/1 ـ 793 .

قال أبو السعود: في قوله تعالى: (وكان الله غفورا رحيما)، أي مبالغا في المغفرة والرحمة لمن يشاء، ولا يشاء إلا لمن تقتضي الحكمة مغفرته، ممن يؤمن به وبرسوله، وأما من عداه من الكافرين فهم بمعزل من ذلك قطعا[1].

ـــ والرحمة جزاء لأهل الإسلام، فيما لو يؤخّر آجالهم: قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، قال الرازي: يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما قال تعالى: (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون)[3]، قل لهم إن الله تعالى سواء أهلكني بالإماتة، أو رحمني بتأخير الأجل، فأي راحة لكم في ذلك؟ وأي منفعة لكم فيه؟ ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم؟، أتظنون أن الأصنام تجيركم أو غيرها؟ فإذا علمتم أن لا مجير لكم، فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب؟، وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث؟! [4].

5 ـــ الرحمة جزاء للزوجين:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5]، قال في تيسير الكريم: ومن آياته الدالة على رحمته، وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن[6]، وقال ابن كثير: ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورا، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم، إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة، وهي المحبة ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو

1 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 108/7.
2 ـ الملك (28).
3 ـ الطور (30).
4 ـ التفسير الكبير، الرازي، 67/30.
5 الروم (21).
6 ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 639/1.

لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك[1].

والتعايش بين الزوجين في أمسّ الحاجة إلى توادّ وتراحم، لذلك جاز الله الزوجين بهما، قال في الكشاف: وجعل بينكم التواد والتراحم بعصمة الزواج، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة ولا لقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم[2]، وقال البيضاوي: بأن تعايش الإنسان متوقف على التعارف والتعاون المحوج إلى التواد والتراحم[3]، والحياة بين الزوجين قائمة على المودة والرحمة، وقال الإمام الرازي: ما تفضي إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما يفضي إلى الآخر، فالمودة تكون أولا ثم إنها تفضي إلى الرحمة، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض، ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس[4]، وليست قائمة على الشهوة، ويقول الإمام الرازي كذلك: لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي وتبقى الرحمة، فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع، وهو مبطل للشهوة، والشهوة غير دائمة في نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق، فالرحمة التي بها يدفع الإنسان المكاره عن حريم حرمه، هي من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر[5].

6 ـــ الجنة جزاء

ـــ فالجنة جزاء وثواب لمن اعتصم بالله، وتمسك بكتابه:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾[6].

أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير، سيدخلهم في جنته دار الخلود، ويهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة.

1 ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 430/3.
2 ـ الكشاف، الزمخشري، 479/3.
3 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 332/4.
4 ـ التفسير الكبير، الرازي، 97/25.
5 ـ التفسير الكبير، الرازي، 97/25.
6 ـ النساء (175).

يقول الإمام الطبري[1] في قوله تعالى: (فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْـهُ وَفَـضْلٍ) يقـول: فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه، وتوجب لهم **ثوابه ورحمته وجنته**، ويلحقهـم من فضله ما ألحق أهل الإيمان به والتصديق برسله، (وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِـرَاطاً مُـسْتَقِيماً) يقول: ويوفقهم لإصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه، ويسددهم لسلوك منهج مـن أنعم عليه من أهل طاعته، ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم، وذلك هو الصراط المستقيم وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده وهو الإسلام[2].

ـــ والجنة جزاء لمن يتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

قال ابن الجوزي: أي ومن الأعراب من يصدق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت، على عكس أولئك المنافقين، ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته، ودعـاء الرسول واستغفاره لهم، وإن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوهـا مخلصين، (سيدخلهم الله في رحمته قال ابن عباس في جنته)[4] التي أعدها للمتقين.

ويقول سيد قطب في هذه الآية: فهو الإيمان باللّه واليوم الآخر باعث الإنفاق عند هذا الفريق، لا الخوف من الناس، ولا الملق للغالبين، ولا حساب الربح والخـسارة في دنيـا الناس!، وهذا الفريق المؤمن باللّه واليوم الآخر، يبتغي بما ينفق أن يكون قربى مـن اللّـه؛ ويتطلب صلوات الرسول.. أي دعواته.. الدالة على رضاهﷺ ، المقبولة عند اللّه، وهـو يدعو بها للمؤمنين باللّه واليوم الآخر، المنفقين ابتغاء القربى من اللّه ورضاه..

---

1 ـ **ابن جرير الطبري:** هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، ولد بآمل سنة أربع وعشرين ومائتين، وهو رأس المفسرين على الإطلاق، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظا لكتاب الله، بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عالما بأحوال الصحابة والتابعين، بصيرا بأيام الناس وأخبارهم، له تصانيف عظيمة، منها: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وهو أجلّ التفاسير لم يؤلف مثله، جمع فيه بين الرواية والدراية، ولم يشاركه في ذلك أحد قبله ـ بعده الإمام الشوكاني ـ ومنها تهذيب الآثار، وتاريخ الأمم وغيرها، توفي ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة، انظر (طبقات الشافعية، لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي (779هـ ـ 851هـ)، اعتنى بتصحيحه وعلق عليه، د/ الحافظ عبد العليم خان، 101/1، مؤسسة دار الندوة الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، وطبقات المفسرين للداودي 106/2، وميزان الاعتدال، للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، 498/3، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة والسنة غير مذكورين.

2 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 40/6.

3 ـ التوبة (99).

4 ـ زاد المسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، 490/3، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط3، 1404هـ / 1983م.

لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربى مقبولة عند اللّه: (أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ..) ويبشرهم بحسن العاقبة وعداً من اللّه حقاً: (سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ..)، ويجسم الرحمة كأنها دار يدخلونها فتحتويهم؛ وذلك في مقابل تجسيم دائرة السوء على الفريق الآخر، الذي يتخذ ما ينفق مغرماً ، ويتربص بالمؤمنين الدوائر، (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يقبل التوبة، ويتقبل النفقة، ويغفر ما كان من ذنب، ويرحم من يبتغون الرحمة[1].. وقال الرازي: وأن الله غفور لسيئاتهم رحيم بهم حيث وفقهم لهذه الطاعات[2].

ـــ والجنة جزاء للذين استقاموا:

وبعد أن تتنزل الملائكة على المؤمنين تطمئنهم: لا تخافوا على ما أنتم قادمون عليه من أمور الآخرة، ولا تحزنوا ولا تأسفوا على ما خلفتموه وراءكم من أهل وولد، ومتاع فإن الله خليفتكم عليهم، تقول ذلك للذين آمنوا ثم ثبتوا واستقاموا، قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[3].

قال في التيسير: ويقولون لهم أيضا ـــ مثبتين لهم ومبشرين ـــ (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)، يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصا عن الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي يوم القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[4]، ويقولن لهم أيضا: ولكم في الجنة ما تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم، وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، (نزلا من غفور رحيم)، وهذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم، نزل وضيافة من غفور غفر لكم السيئات، رحيم حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم، فبمغفرته أزال عنكم

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 3 /1701.
2 ـ التفسير الكبير، الرازي، 133/16.
3 ـ فصلت (30 ـ 32).
4 ـ الرعد (23 ـ 24).

المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب[1]، ويقول سيد قطب: ويزيدونها لهم جمالاً وكرامة: (نزلاً من غفور رحيم)، فهي من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته، فأي نعيم بعد هذا النعيم؟ [2].

ـــ ومن سبقت له الجنة كجزاء أدخله الله في الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[3]، ولو شاء الله لجعلهم على ملة واحدة وهو الإسلام، ولكن يدخل من يشاء في رحمته يعني: يكرم بدينه من يشاء من كان أهلا لذلك، ويدخله في الآخرة في جنته، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير، يعني الكافرين ليس لهم مانع يمنعهم من العذاب ولا ناصر ينصرهم[4].

وقال في الوجيز في قوله تعالى: (ولكن يدخل من يشاء في رحمته)، يبين أنه إنما يدخل الجنة من يشاء فهو فضل منه[5].

ويعقب صاحب الظلال عن هذه الآية بقوله: لو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحِّد سلوكهم، فتوحِّد مصيرهم، إما إلى جنة وإما إلى نار، ولكنه – سبحانه – خلق هذا الإنسان لوظيفة، خلقه للخلافة في هذه الأرض، وجعل من مقتضيات هذه الخلافة، على النحو الذي أرادها، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه، تفرقه عن الملائكة وعن الشياطين، وعن غيرهما من خلق الله ذوي الطبيعة المفردة الموحدة الاتجاه، استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح؛ ويجنح بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السِّيء، كل منهما يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة في طبيعة تكوين هذا المخلوق البشري؛ وينتهي إلى النهاية المقررة لهذا السلوك:فريق في الجنة وفريق في السعير.. وهكذا: يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير.. وفق ما يعلمه الله من حال هذا الفريق وذاك، واستحقاقه للرحمة بالهداية أو استحقاقه للعذاب

1 ـ انظر تيسير الكريم الرحمان، السعدي، 748/1 ـ 749.
2 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 5/ 3121.
3 ـ الشورى (8).
4 ـ بحر العلوم، السمرقندي، 225/3.
5 ـ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، 961/2.

بالضلال.. ولقد سبق أن بعضهم يتخذ من دون الله أولياء، فهو يقرر هنا أن الظالمين: ما لهم من ولي ولا نصير.. فأولياؤهم الذين يتخذونهم لا حقيقة لهم إذن ولا وجود[1].

ـــ الجنة جزاء وفضل ينالها أهل طاعته ومن كانوا يدعونه أن يرحمهم:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[2].

قال ابن عباس: يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا[3]، وقال في التيسير: وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن أمور الدنيا وأحوالها، قالوا في ذكر بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: إنا كنا قبل في دار الدنيا في أهلنا خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب، فمنَّ الله علينا بالهداية والتوفيق[4]، وقال البيضاوي: فمنَّ الله علينا بالرحمة والتوفيق[5]، ثم قال في التيسير: ووقانا العذاب الحار الشديد حره، إنا كنا من قبل ندعوه أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم ـــ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ـــ أي لم نزل نتقرب إليه بأنواع العبادات، وندعوه في سائر الأوقات، إنه هو البر الرحيم، فمن بره ورحمته إيانا أن أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار[6].

هكذا يكون الجزاء بالرحمة، كما فصلته الآيات البينات.

1 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 5/ 3144 - 3145.
2 ـ الطور (27 - 28).
3 ـ معالم التنزيل، البغوي، 240/4.
4 ـ انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 815/1.
5 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، 248/5.
6 ـ انظر نفس المرجع تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 815/1.

المبحث الثاني : الإبتلاء بالرحمة

إذا كان الله يجازي عباده بالرحمة، فكذلك يبتليهم بالرحمة من جهة أخرى، فمن الابتلاء بالرحمة الابتلاء بالرخاء بعد الشدة، والله يبتلي عباده لينظر هل يشكر الناس ويقدّروا خالقهم حق قدره! أم تعود عليهم بالنقمة والبلاء؟، وكذلك لبيان طبيعة هذا الإنسان المتجرد من الإيمان، كيف يكون حاله، مع متقلبات الزمن وعواصف الأيام.

ويبتلي الله عباده بكشف البلاء عنهم، فبعض منهم بدلا من أن يعودوا ويتضرعوا إلى خالقهم، إذ هم يستمروا ويتمادوا في العناد والكفر!، ثم بعد كشف الضر يبتلي الله عباده بالسعة والرخاء والصحة، فإذا هم يشركون به، بدلا من شكر نعمائه عليهم.

و يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده بالنعم ثم ينزعها منهم، فنرى هذا الإنسان الجاحد قنوطا من رحمة الله، إلا المؤمنون الصابرين المحسنين الذين يفعلون الخير في كل الظروف.

فهذه النعم وهذه الرحمات التي لا تحصى ولا تعد، يبتلي الله بها عباده ليعلم الصادقين ويبلو أخبارهم، والابتلاء بالضراء في عمومه رحمة كما في الحديث:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺعَنِ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ: (عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ **رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**، لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ)[1].

1 ـــ الإبتلاء بالسعة والرخاء بعد الشدة:

ـــ ومنها الخصب والنعمة والخلاص بعد الشدّة، والشفاء من المرض والتأمين من الخوف: قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

أي وإذا أصاب الناس الضر وهي كما قال الزمخشري: (الشدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك)[3]، أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء، لينجوا من ذلك الضر، وتركوا

1 ـ صحيح البخاري، البخاري، برقم: 3215، آحاديث الأنبياء.
2 ـ الروم (33 ـ 34).
3 ـ الكشاف، الزمخشري، 485/3.

أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى، لأنهم في ذلك الوقت في إنابة وخضوع.

(ثم إذا أذاقهم[1] منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون)، قال أبو السعود: ثم إذا أذاقهم منه رحمة أي خلاصا من تلك الشدة [2]، أو خصبا ونعمة[3]، أو شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم[4]، (إذا فريق منهم بربهم يشركون)، قال الإمام الفخر: يعني إذا خلصناه يشرك بربه، ويقول: تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان وبسبب الصنم الفلاني، لا بل ينبغي أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان[5].

والغرض من الآية التشنيع على المشركين، فإنهم يدعون الله في الشدائد، ويشركون به في الرخاء، ليكفروا بنعم الله، وليتمتعوا في هذه الدنيا فسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة تمتعكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني.

ـــ ومنها الإبتلاء بالخصب وكثرة المطر: قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [6].

وإذا أذقنا الناس رحمة أي الخصب وكثرة المطر، (فرحوا بها،) يعني فرَح البطر، (وإن تصبهم سيئة) أي الجدب وقلة المطر، ويقال الخوف والبلاء، بما قدمت أيديهم من السيئات، إذا هم ييأسون من رحمة الله، وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر الله عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة[7].

ـــ ومنها الإبتلاء بالأمطار بعد القحط الشديد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[8].

---

1 ـ قال الرازي في قوله تعالى: (أذاقهم) فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال في القليل، لأن الرحمة في الدنيا، هي رحمة واحدة من مائة رحمة ادخرها الله لعباده في الآخرة، اذن فلفظ ـ أذاقهم ـ مناسب في الحياة الدنيا، لأنها رحمة واحدة، وهي تعتبر قليلة مقارنة بالرحمة في الآخرة، ولهذا قال في العذاب: (ذوقوا مس سقر)(القمر 48)، (ذوقوا ما كنتم تعملون)(العنكبوت 55)، (ذق إنك أنت العزيز الكريم)(الدخان 49)، لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة، (التفسير الكبير، الرازي، 106/25).

2 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 61/7.

3 ـ معالم التنزيل، البغوي، 484/3.

4 ـ تيسير المنان الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، 641/1 .

5 ـ التفسير الكبير، الرازي، 106/25.

6 ـ الروم (36).

7 ـ انظر معالم التنزيل، البغوي، 484/3.

8 ـ يونس (21).

قال الإمام الرازي: روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين، ثم رحمهم وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء، (وإذا أذقنا الناس رحمة) المراد منه تلك الأمطار النافعة، (من بعد ضراء مستهم) المراد منه ذلك القحط الشديد، والمقصود من الآية كما يقول الرازي: أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة ويطلبون الغوائل، وقوله: (إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا) وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك، فلا فائدة في إظهار سائر الآيات، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات الظاهرة، فإنهم لا يقبلونها، لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لّما شدّد الأمر عليهم وسلط البلاء عليهم، ثم أزالها عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها[1].

ويقول سيد قطب: يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر، حين يذوقون الرحمة بعد الضر، كما تحدث من قبل عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه، ويضرب لهم مثلا مما يقع في الحياة يصدق ذلك ، فيقدمه في صورة مشهد قوي من مشاهد القرآن التصويرية، عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يثوب إلى فطرته ويترع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة، فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان، ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن، مجلوة دائما بجلاء الإيمان، وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، إذا لهم مكر في آياتنا.. ويقول: كذلك صنع قوم فرعون مع موسى، فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه، فإذا ذاقوا الرحمة مكروا في آيات الله، وأولوها على غير وجهها، وقالوا: إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا، وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك ، فجاءت محمدا تناشده الرحم أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا، ثم مكرت قريش بآية الله وظلت فيما هي فيه! وهي ظاهرة مطردة في الإنسان ما لم يعصمه الإيمان [2].

1 ـ التفسير الكبير، الرازي، 53/17.
2 ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، 1773/3.

أما قوله تعالى: (قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون)، فالمعنى أن هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر، فالله سبحانه وتعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك... أن رسل الله يكتبون مكرهم ويحفظونه، وتعرض عليهم ما في بواطنهم الخبيثة يوم القيامة، ويكون ذلك سببا للفضيحة التامة والخزي والنكال نعوذ بالله تعالى منه[1].

ـــ ثم يؤكد الله تعالى ويقرر ذلك، عندما يبتلي الكافرين بكشف البلاء عنهم، بأنهم يستمروا ويتمادوا في الطغيان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[2].

والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر، وهو الهزال والقحط الذي أصابهم، برحمته عليهم، ووجدوا الخصب، لارتدّوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار، وعداوة رسول الله ﷺ والمؤمنين[3]، وقال الرازي: (وكشفنا ما بهم من ضر) ففيه وجوه، أحدها: المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا، وثانيها: المراد ضرر القتل والسبي، وثالثها: أنه ضرر الآخرة وعذابها، فبيّن أنهم قد بلغوا في التمرد والعناد المبلغ الذي لا مرجع فيه إلى دار الدنيا، وأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه الأنعام 28 لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر[4].

2 ـــ الإبتلاء بالنصر والعافية والسلامة:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاّ قَلِيلاً، قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾[5]، يقول البغوي: أي قل ياأيها النبي لهؤلاء المنافقين الذين يفرون من القتال، طمعا في البقاء وحرصا على الحياة، (قل لهم لن ينفعكم الفرار أن فررت من الموت أو القتل الذي كتب عليكم، لأن من حضر أجله مات أو قتل، وإذا لا تمتعون بعد هذا الفرار إلا مدة آجالكم وهي قليل، قل من ذا الذي يمنعكم من عذابه إن أراد هزيمة أو أراد بكم رحمة نصرا، ولا يجدون لهم من دون الله قريبا ينفعهم ولا ناصرا يمنعهم)[6].

1 ـ التفسير الكبير، الرازي، 54/17.
2 ـ المؤمنون (75 ـ 76).
3 ـ الكشاف، الزمخشري، 200/3.
4 ـ التفسير الكبير، الرازي، 98/23.
5 ـ الأحزاب (16 ـ 17).
6 ـ معالم التنزيل، البغوي، 3/ 517.

وعند ابن الجوزي: أن الرحمة هنا بمعنى النصر والعافية والسلامة، فقال: من ذا الـــذي يجيركم ويمنعكم منه إن أراد بكم سوءا وهو الإهلاك والهزيمة والبلاء، أو أراد بكم رحمـــة وهي النصر والعافية والسلامة[1]، وعند القرطبي: خيرا ونصرا وعافية[2].

3 ــ الإبتلاء بالنعم:

والنعم عموما من رحمة الله تعالى، وقد يبتلي بها عباده، ليختبرهم ويعلـــم خبايـــاهم، والمؤمن يعتبر هذه النعم كالوصلة إلى الآخرة، بل يعلم أن الدنيا دار مفر، والآخـــرة دار مقر، قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُـــمْ مِـــنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ، فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظـــاً إِنْ عَلَيْـــكَ إِلاّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾[3]، أي استجيبوا أيها الناس إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة، من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحد على رده، لأنه ليس له دافـــع ولا مانع، ليس لكم مفر تلتجئون إليه، وليس لكم منكِر ينكر ما يترل بكم من العذاب، وقال أبو السعود: أي ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم[4].

فإن أعرض المشركون عن الإيمان و لم يقبلوا هدية الرحمن، ما عليـــك إلا أن تـــبلغهم رسالة ربك وقد فعلت، قال أبو حيان: والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيس لـــه، وإزالـــة لهمه بهم[5]، وقال الإمام الفخر: ثم أنه تعالى بيـــّن السبب في إصرارهم علـــى مذاهبـــهم الباطلة، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة الفوز بمطالب الدنيا يفيـــد الغـــرور والفجور والتكبر، وعدم الانقياد للحق، فقال: (وإنا إذا أذقنا الإنســـان منا رحمة فـــرح بها)، ونعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سماها ذوقا، فبيـــّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير، الذي حصل في الدنيا فإنه يفرح بها، ويَعظم غروره بسببها، ويقـــع في العجـــب

1 ـ زاد المسير، ابن الجوزي، 363/6.
2 ـ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 151/14.
3 ـ الشورى (47 ـ 48).
4 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 37/5.
5 ـ قال الصاوي: والحكمة في تصدير النعمة بـ (إذا) والبلاء بـ (إن) هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه.

والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، ووصل إلى أقاصي السعادات، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات الآخرة وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة، ثم بيّن أنه متى أصبتهم سيئة أي شيء يسوءهم في حال، كالمرض والفقر وغيرهما، فإنه يظهر منه الكفر، وهو معنى قوله: (فإن الإنسان كفور)، والكفور الذي يكون مبالغا في الكفران، ولم يقل فإنه كفور، ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة، إلا إذا أدّبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها[1].

ـــ والله يبتلي عباده كذلك بالنعم بعد الشدّة، ليبيّن طبيعة الإنسان المتجرّد من الإيمان، التائه في الضلال، لأن المؤمن يعلم أن النعم كلها من الله فيشكره عليها بالطاعات، ولا ييأس من روح الله، بل يصبر ويعلم أن كلاهما ابتلاء:

قال تعالى: ﴿لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[2].

أي لا يمل الإنسان من سؤاله ودعائه بالخير لنفسه، كالمال والصحة والعز والسلطان، وإن أصابه فقر أو مرض فهو عظيم اليأس، قانط من روح الله ورحمته، ولئن أعطيناه غنى وصحة من بعد شدة وبلاء، ليقولنّ هذا بسعيي واجتهادي، قال أبو حيان: سمّى النعمة رحمة إذ هي من آثار رحمة الله، وما أعتقد أن القيامة ستكون، وعلى فرض أن القيامة حاصلة، فليحسنن إليّ ربي كما أحسن إليّ في هذه الدنيا، قال ابن كثير: يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين، فو الله لنعلِمنَّ هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم، ولنبصرنهم بإجرامهم، ولنعذبنهم أشد العذاب، وهو الخلود في نار جهنم[3].

ـــ وقد يبتلي الله عباده بالنعم ثم ينزعها منهم، لشدّة تعلقهم بها، ليقرر كذلك طبيعة الإنسان، عندما لا يكون قلبه عامرا بالإيمان، ولا متحليا بالصبر، وعندما تكون صلته بالله منقطعة: قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ، إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا

1 ـ التفسير الكبير، الرازي، 158/27.
2 ـ فصلت (49 ـ 50).
3 ـ صفوة التفاسير، الصابوني،16/15 ـ 17.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1]، يقول أبو السعود: ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة أي أعطيناه نعمة،من صحة وأمن وجدة وغيرها، وأوصلناها إليه بحيث يجد لذتها، ثم سلبناه إياها ـــ وإيراد النزع للإشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها ـــ إنه ليؤوس شديد القنوط من روح الله، قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى، لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به، كفور[2] عظيم الكفران لما سلف من النعم[3].

ويقول سيد قطب في ذلك: إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه؛ فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي، فهو يؤوس من الخير، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله له، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء، لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه؛ ولا يقتصد في فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حسابا[4]..

هذه عادة الإنسان، إلا المؤمنون الذين يصبرون على الضراء، ويفعلوا الخير في النعماء، فهم في حالتي المحنة والنعمة محسنون، أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة،لهم مغفرة لذنوبهم، وأجر كبير في الآخرة هو الجنة.

ـــ ومن الابتلاء بالنعم الاستخلاف في الأرض والتفضيل برفع الدرجات:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]، أي جعلكم خلفا للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضا، قال الطبري: أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها[6]، وخالف بين أحوالكم في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف

1 - هود (9 - 11).
2 - قال أبو السعود: وفيه إشارة إلى أن النزع إنما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل، وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه، وقطع الرجاء عن إضافة أمثاله في العاجل وإيصال أجره في الآجل، من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا،(إرشاد العقل السليم، أبو السعود، 189/4 - 190).
3 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، 189/4 - 190.
4 - في ظلال القرآن، سيد قطب، 1860/4.
5 - الأنعام (165).
6 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، 287/12.

وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد، ليختبر شكركم على ما أعطاكم، قال في التيسير: ليبلوكم في ما آتاكم فتفاوتت أعمالكم ـــ فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب ـــ إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وكذب بآياته، وإنه لغفور رحيم لمن آمن به وعمل صالحا، وتاب من الموبقات[1].

وبعد ... فالرحمة لا تكون دائما جزاء، فقد يبتلي الله عباده بالرحمة كذلك، لا لمكانتهم أو منزلتهم، ولذلك جاء القرآن لتصحيح هذا المفهوم الخاطيء عند بعض الناس، وهو المفهوم الذي كان سائدا عند الكافرين، عندما قال تعالى عن ذاك الإنسان المجرد من الإيمان: ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾[2]، وهو في حقيقة الأمر إبتلاء، فنرى بعض الجهلة الأغنياء يزعمون أن الله لم يرحم الفقراء والمبتلين ببعض العاهات، بل عاقبهم بذلك لأن الله لا يحبهم، ولو كان يحبهم ـــ بزعمهم ـــ لأغناهم من فضله ولعفاهم، وقد رأينا كيف ابتلى الله عبده ونبيه أيوب عليه السلام، وهو من المصطفين الأخيار من أنبيائه، عندما مدحه بالعبودية لله، فلماذا يبتليه وهو كذلك، وقد كان من الأغنياء؟، بحسب منطق هؤلاء؟، ثم قال عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[3]، إذن فالإبتلاء بالرحمة أو بالشدائد، ليس هو المقياس في تحديد منزلة ومكانة الإنسان، بل هما ميزان لاختبار معدن الإنسان، في صدقه ودرجة إيمانه، وهما فتنة ليختبر بهما الناس، وأن كل واحد منهم مختبر بصاحبه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[4]، وقال في أضواء البيان: (فيه فتنة أغنياء الكفار بفقراء المسلمين حيث احتقروهم وازدروهم وأنكروا أن يكون الله منّ عليهم دونهم، لأنهم في زعمهم لفقرهم ورثاثة حالهم، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع، كما قال تعالى عنهم إنهم قالوا فيهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[5]، وقال: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[6]، إلى غير ذلك

1 ـ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، 283/1.
2ـ الفجر (15).
3ـ سورة ص(44).
4 ـ الأنعام (53).
5 ـ الأحقاف (11).
6 ـ القمر (25).

من الآيات، وسيوبخهم الله يوم القيامة على احتقارهم لهم في الدنيا[1]، كـــــما قال تعالى: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَـــيْكُمْ وَلا أَنْـــتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[2].

1 ـ أضواء البيان، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، (ت: 1393هـ)، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، 36/6، دار الفكر للطباعة ـ بيروت، 1415هـ/1995م.
2 ـ الأعراف (49).